

العمارة العربية الاسلامية

م.م.علي سعد عبد الوهاب

المحاضرة السادسة

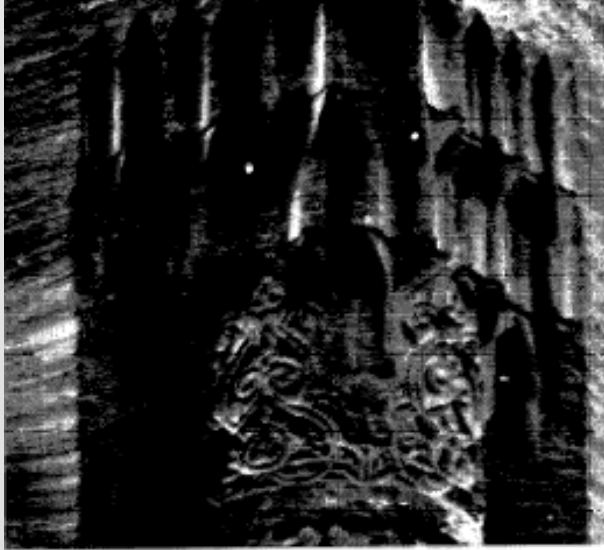


جامعة المثنى

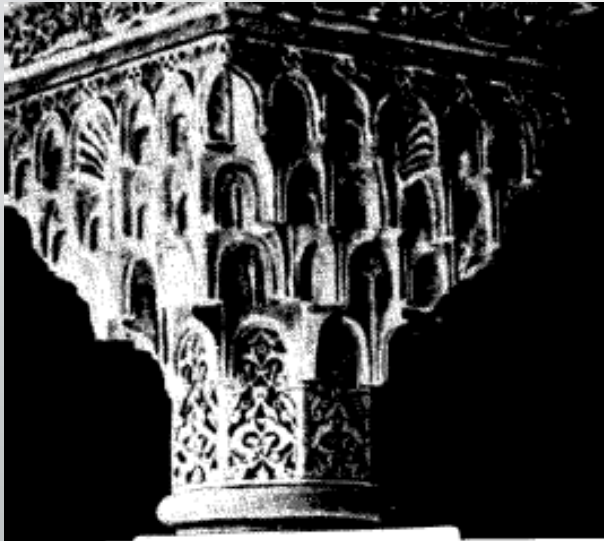
كلية الهندسة

قسم هندسة العمارة





ش : ١٣٢ - مصر، تاج عمود من مقرنصات



ش : ١٣٣ - غرناطة، تاج عمود من مقرنصات

الشرقية من العالم الإسلامي من تطورات حضارية ومعمارية بعد هدوء عاصفة المغول . فند أن قنع المغول بأن يكوّنوا دولتهم في تلك المنطقة ، لم يجدوا موقعا أفضل من مكان بغداد التي أحرقوها ودمروها من قبل ، ومن ثم فإنهم أخذوا في إعادة بنائها وتعميرها مرة أخرى ، وحافظوا بذلك على التقليد الذي كان سائداً منذ آلاف السنين قبل الأخاميين الفرس وهو أن تكون حاضرة الدولة الحاكمة لتلك المنطقة على أرض العراق ، ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى الأخامينيون الذين اتخذوا من مدينة پرسهوليس حاضرة لهم وهي قريبة من مدينة شیراز الحالية . ولكن ما كاد الأسكندر ينجح في القضاء على الدولة الأخامينية حتى عادت الحاضرة بعد قرنين فقط إلى العراق وعلى نهر دجلة كالعادة ، وذلك في أيام السلوقيين ولاة فارس والعراق من قبل الاسكندر ، أي عادت العراق الأرض المفضلة لقيام عواصم الدول التي تعاقبت على حكم القطرين ، وكان منهم البرثيون الذين أسسوا المدائن حاضرة لهم ثم للساسانيين من بعدهم ، وإلى أن أسس العباسيون مدينة بغداد على مسافة قريبة منها ،

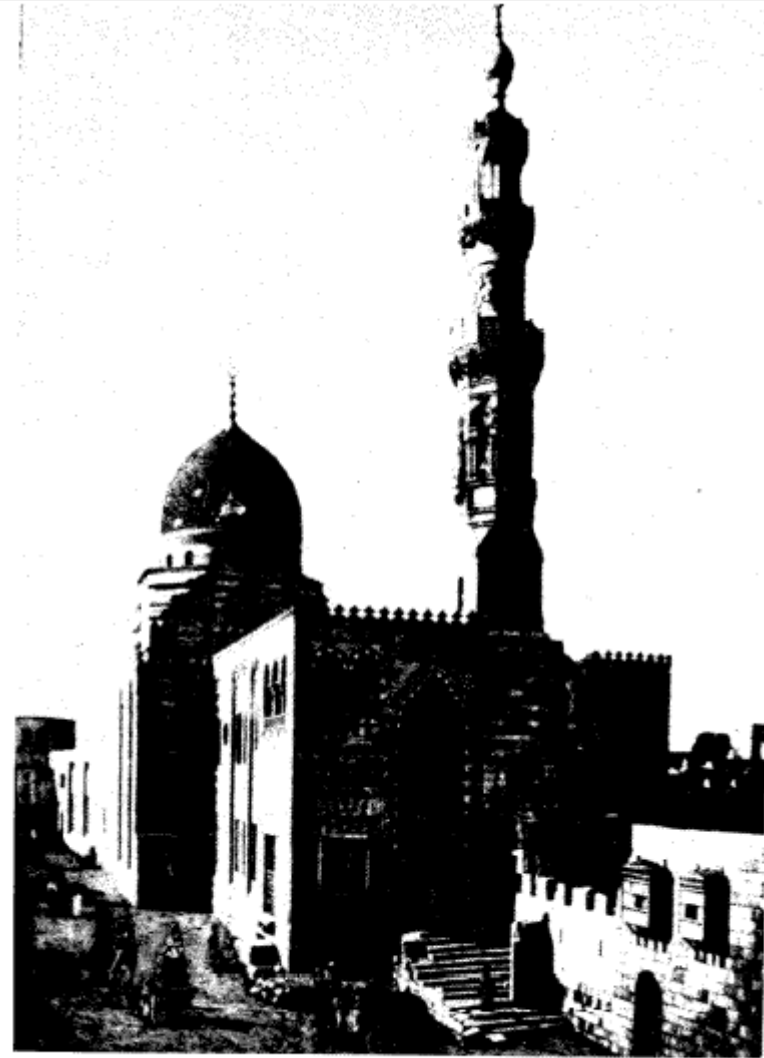
تمتاز بأن إيوان القبلة فيها قد غطي بقبة ، ومنها مدرسة منارة انديشي (ش : ١٠٩ - ١١١) (١١١) . كما شيد بجوار قونية فندق أو مسافر خانة تدعى خان في حوالي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) (١١١) .

ومن الجدير بالذكر ، أن ذلك السطراز السلجوقي كان أساساً للعمارة التركية بعد أن أسس الأتراك دولتهم فيها ، وإلى أن قامت دولة العثمانيين وحتى فتحهم للقسطنطينية ومن بعدها لأقاليم جنوب أوروبا واستيلائهم على الشام ثم مصر ، ثم على إقليم شمال إفريقية حتى حدود الجزائر غرباً ، غير أنهم عجزوا عن ضم منطقة فارس والعراق ، فقد حال دون ذلك دولة الصفويين التي كانت في أوج قوتها في ذلك الوقت ، وكانت أصفهان حاضرة لهم بدلا من سمرقند التي كانت حاضرة التيموريين .

وقد أنتجت تلك الفتح العثمانية تحولا خطيراً في تطور العمارة العربية الإسلامية منذ ذلك الوقت ، أصاب أصلتها ونقاءها بأشد هزات صادفتها في تاريخها الطويل .

* * *

ونعود لنستعرض ما حدث في تلك المنطقة



بريس دالين

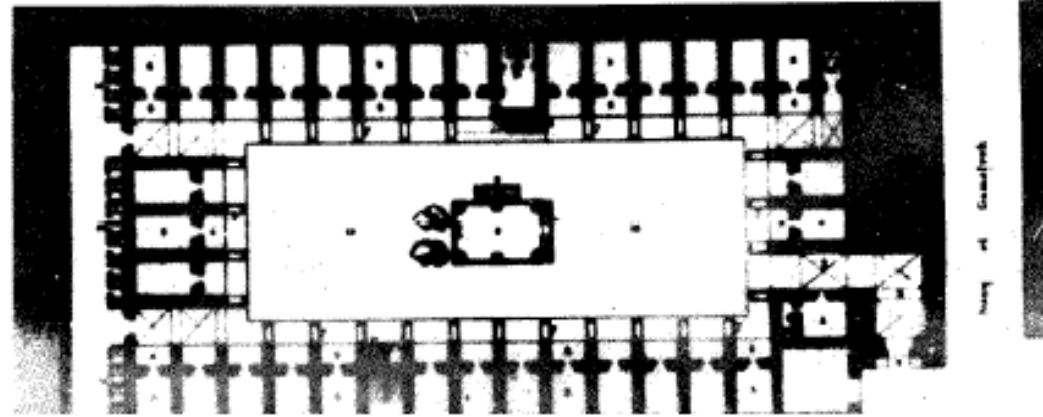
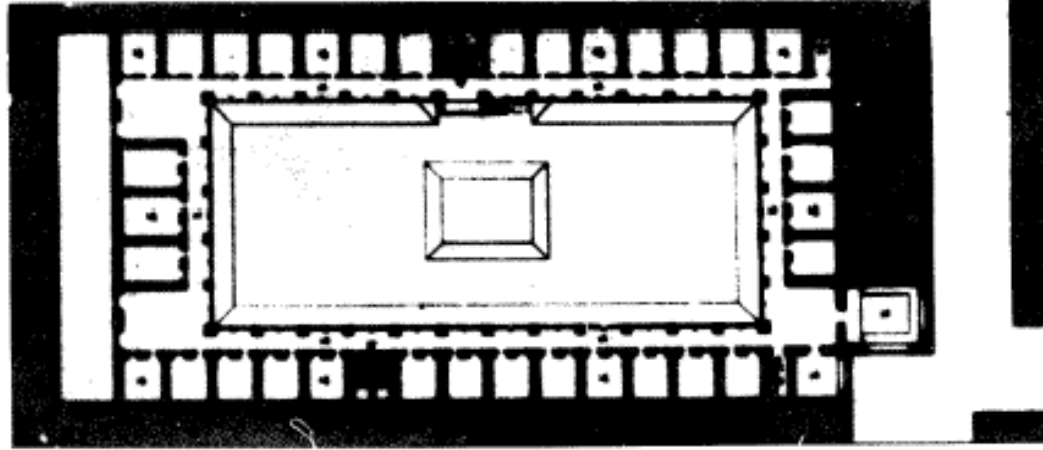
ش : ١٣٤ - مصر ، جامع ومدرسة قايتباي

خان في حوالي عام ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ، واشتهر بميله الشديد إلى البناء وتعمير ما أمكنه تعميره من الخراب الكبير الذي أحدثته غارة أجداده . وكان أكثر ما اهتم له هو بناء المساجد والحمامات وغيرها بدلا من العماير التي دمرها أجداده ولم يبق منها أثر على وجه الأرض . وبقي من أعمال ذلك السلطان إيوان القبلة لجامع علي شاه في تبريز^(٣) ، وهو من أجمل الأعمال ومن أضخم الآثار المعمارية في العصر

وظلت حاضرة لهم حتى أحرقها المغول ثم أعادوا بناءها لتكون حاضرة لهم بدورهم . واعتنق المغول الذين عرفوا بالخاقانات العظام الدين الإسلامي وانخرطوا في ركب الحضارة الإسلامية ، وأخذت تقاليد العمارة العربية الإسلامية ترفع رأسها مرة ثانية هناك ، وتستعيد أمجادها السابقة ، وعلى كثير من الأسس القديمة . وكان أول من أذاع اعتناقه للإسلام غازان

ش : ١٣٥ - مصر ، وكالة ذو الفقار مسقط الطابق الأرضي والأول

بشكل كوست



الصفوي من بعده اللذين ينسب إليهما أهم الآثار المعمارية في تلك المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي .

ثم انبثق عن العمارة الإسلامية في فارس والعراق في العصر التيموري والصفوي مدرسة في الهند منذ تأسيس دولة الأباطرة المغل فيها على يدي الإمبراطور بابر منذ عام ٩٣٢ هـ (١٥٢٥ م) ، وكانت وثيقة الاتصال بالتقاليد الفارسية حتى أنها عرفت بالمدرسة الفارسية الهندية . وازدهرت تلك المدرسة ازدهاراً كبيراً في عصري الإمبراطور أكبر وخليفته شاه جهان صاحب أشهر عمائرهما وهو ضريح زوجته «تاج محل» في أجرا (ش : ١٤٣) .

* * *

وكانت تعاصر تلك الأحداث في شرق

الإسلامي ، فلقد فاق في سعته وارتفاع قبوه إيوان كسرى الذي شيده الساسانيون في المدائن .

وعادت التقاليد والمفاهيم المعمارية التي وضعت أسسها في العصور السابقة على الفتح المغولي إلى الازدهار والسير السويدي الثابت الخطوات طوال العصر المغولي الأول ، ثم في العصر المغولي الثاني في أيام تيمورلنك من بعده ، والذي نقلت فيه العاصمة إلى أرض فارس مرة ثانية ، أي بعد ١٨ قرناً من زوال الدولة الأخمينية الفارسية ، وتوارت مكانة فارس كدولة بل كانت قسراً تابعاً للعراق في أثنائها .

وتتابعت حلقات تطور العمارة الإسلامية في منطقة فارس والعراق في العصرين التيموري ثم

ش : ١٣٦ - مصر، وكالة ذو الفقار، الفناء

سكال كوست



المعمارية التي أنتجها الفنانون العرب المسلمون ، لا في العالم الإسلامي فحسب ، بل وفي تاريخ العمارة كله ، وله شهرة مدوية وقيمة معمارية وفنية كبيرة جعلته يجتذب أنظار الناس ويشدهم إلى زيارته والتجول بين أبعائه وأجنحته وقاعاته وسافراته وأحواض الماء المنتشرة في أرجائه ، وجعل الكتاب والباحثين يضعون الكثير من المؤلفات والأبحاث عن المدينة وعن العصر وعن العمائر الأخرى التي انتشرت بين أرجائها^(١١) .

ويعود الاهتمام بمدينة غرناطة إلى القرن ١٥ هـ (١١ م) عندما قام الصراع بين ملوك الطوائف ، فأعاد أحدهم بناء أسوارها وتحصيناتها التي ضمت رقعة كبيرة من الأرض بين تلين ، ولذلك فإنها تكونت من عدة مرتفعات ومنخفضات ، وجعل بأسوارها عدة أبواب ، ولا يزال موقعها يحتفظ ببقايا وأطلال

العالم الإسلامي في ذلك الوقت أحداث أخرى غاية في الخطورة كانت تتابع في وسط وغرب ذلك العالم الكبير .

من تلك الأحداث ما وقع من انتهاء دولة العرب المسلمين من الأندلس في نهاية القرن ١٥ هـ (١٥ م) بخروج آخر ملوك بني نصر أصحاب غرناطة وقصرها الشهير بالحمراء ، وما تبع ذلك من قيام طراز المدجنين الذي امتزجت فيه تقاليد العمارة العربية الإسلامية ، أو رواسبها بمعنى أصح ، بظواهر وأساليب عصر النهضة في تلك البلاد ، والتي كانت لها الغلبة في النهاية ، ولم يبق من العمارة العربية الإسلامية هناك إلا رذاذ ورواسب متناثرة هنا وهناك .

ويستحق قصر الحمراء لمحة سريعة لما يتمتع به من مكانة عالمية حيث يعد أحد التحف

من قصور الحكام الذين تتابعوا عليها .
وتتابعت الأحداث على المدينة في أيام
المرابطين ثم الموحدين حتى قامت أسرة بني
الأحر أو بني نصر فاتخذوها حاضرة لهم منذ نحو
منتصف القرن ٥٧ (١٣ م) ، وظلوا فيها حتى
سلموها إلى الملكين فرديناند وإيزابلا في نهاية
القرن ٥٩ (١٥ م) .

وشيد قصر الحمراء بداخل الأسوار محمد
بن نصر في حوالي منتصف القرن ٥٧ (١٣ م)
في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة
(ش : ١٢٤ - ١٢٧) ، وشيد لها سداً على نهر
حدرة (Hatra) يرفع منه الماء إلى القصر
وتوابعه .

وساهم سلاطين بني الأحمر الذين تعاقبوا
على غرناطة في ترميم القصر وترميمه وتجميله
وتجديد أرجائه وساتينه والإضافة إليها .

ويتلخص الوصف العام للقصر بأنه يتكون
من خمسة قصور متتابعة يتوسط كلاً منها فناء به
نافورة أو حوض ماء أو بركة ويحيط به قاعات
وأبهاء غاية في الأناقة بل وفي الإسراف في
الزخارف الملونة والمذهبة . ومن أهم تلك
القصور أو الأبنية اثنان لها شهرة خاصة ،
أحدهما فناء الرياحين أو فناء البركة ، وسمي
بذلك لوجود بركة كبيرة تتوسطه وتحيط بها
الورود والرياحين ، وفي صدر الفناء جهة
الشمال قاعة البركة أو قاعة الريحان وخلفها
قاعة السفراء أو قاعة قمارش .

أما الفناء الهام الثاني فهو لا يقل شهرة
عن السابق إن لم يزد عليه ، وهو فناء السياج ،
وسمي بذلك لوجود نافورة عظيمة على هيئة

حوض من الرخام من قطعة واحدة متعددة
الأضلاع يبلغ قطرها نحو ٣ أمتار وعمقها نحو
٦٠ سم ، ويحمل الحوض اثنا عشر أسداً يخرج
الماء من أفواهها (ش : ١٢٧) .

* * *

وكان قد عاصر قيام دولة بني نصر وبناء
قصر الحمراء أحداث أخرى في منطقة وسط
العالم العربي الإسلامي ، كان من أهمها دولة
أنشأها عماليك الدولة الأيوبية ممن كانوا يقيمون
بقلعة شيدها السلطان الصالح نجم الدين أيوب
في الطرف الجنوبي من جزيرة الروضة ، ومن ثم
عرفوا بالمماليك البحرية .

وأهم أولئك المماليك حكم الأيوبيين
سادتهم السابقين الذين تغالوا في شرائهم
وجلبهم من جهات متعددة وبخاصة من أوامط
آسيا ، واعتمدوا عليهم مع الجيوش من الجند
الشاميين والمصريين في مقاومة الصليبيين ، إلى
أن قويت شوكتهم ووصل الأمر إلى أن يتزوج
أحدهم أرملة الصالح نجم الدين أيوب
والمشهورة في التاريخ باسم شجر الدر صاحبة
القصص المثيرة التي صاحبت نهاية الدولة
الأيوبية وقيام الدولة المملوكية ، وشيدت لنفسها
ضريحاً ما يزال موجوداً في الجهة المقابلة لضريح
السيدة رقية من السطريق المؤدي إلى جامع
السيدة نفيسة وإلى القرافة المعروفة باسمها ، وهو
ضريح يشبه في كثير من معالمه المعمارية ضريح
الخلفاء العباسيين في تلك القرافة وشيد في
الفترة الأخيرة من العصر الأيوبي في مصر .

ويرى البعض أن ينسب ضريح شجر الدر إلى
تلك الفترة المتأخرة من العصر الأيوبي ، وينسبه

بعض آخر إلى ساكورة العمارة في العصر
المملوكي^{١١١} .

وكان من الطبيعي أن تستمر التقاليد
والأسس المعمارية في تتابع عادي من حلقات
التطور من العصر الأيوبي إلى العصر المملوكي
كما جرت سنة التطور في العصور المختلفة ،
وبخاصة أن المماليك قد ورثوا الكثير من
مسؤوليات الدولة الأيوبية السياسية والحضارية
ومنها التقاليد المعمارية ، ولم يحدث انقطاع أو
فجوات في تلك المراحل مثلما حدث في فارس
والعراق .

والحق أن تطور العمارة العربية الإسلامية
لا تتكامل حلقاته في المنطقة الوسطى من العالم
العربي الإسلامي إلا بمجموعة العنصر الباقية في
كل من مصر والشام في العصر الأيوبي ، ثم في
العصر المملوكي ثم في العصر العثماني . أما
الحلقات السابقة في كل من العصرين العباسي
والفاطمي فإنه لم يصلنا منها شيء في منطقة
الشام كما سلف القول .

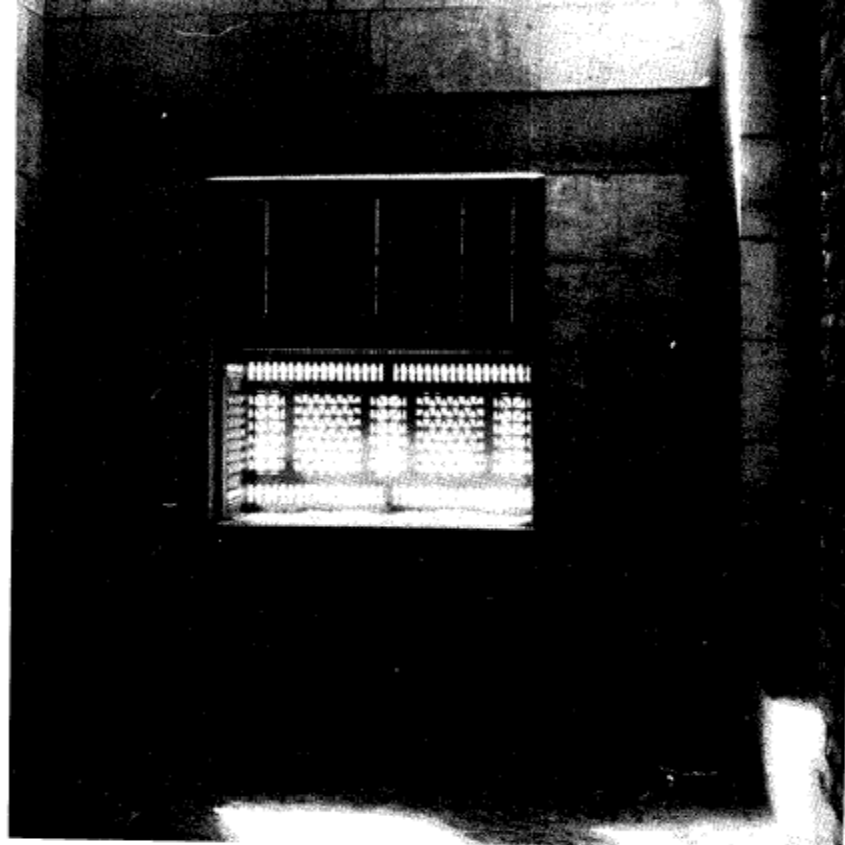
ونفس ذلك بأن هناك أنواعاً من العنصر
من العصر المملوكي بوجه خاص توجد لها
أمثلة في كل من مصر والشام ، بينما بقيت أمثلة
من أنواع أخرى في الشام ولا توجد في مصر ،
والعكس بالعكس .

وعلى سبيل المثال ، فإن نوع المارستانات
الذي لم يبق في مصر منه إلا مارستان قلاوون
وهو لم يكن في حقيقة أمره سوى الجزء الأكبر
الباقى من القصر الغربي الفاطمي ، بينما يوجد
منه مثل قائم وفي حالة جيدة في دمشق هو
مارستان أرغون والذي شيد خصيصاً لذلك

الغرض منذ أول أمره ويؤرخ في منتصف القرن
الثامن الهجري (١٤ م) .

ومن ذلك أيضاً أن أمثلة الحمامات العامة
التي توجد في مصر يؤرخ أغلبها في العصر
العثماني ، بينما توجد أمثلة متكاملة منها ترجع
إلى العصر المملوكي في الشام . ومن الطريف
أن نذكر مثلاً منها شاهدناه داخل قلعة الحصن
أو حصن الأكراد في منطقة من الشام داخل
أرض لبنان بينما تتبع سوريا . ويمتاز ذلك الحمام
بالنظام المألوف من أيام الرومان والذي يتكون
من الحجرة الباردة ثم الدافئة ثم الساخنة ،
ولكن الطريف فيه أنه مشيد كله تحت مستوى
الأرض وليس على ظهرها . وقد أهتم علينا
في أول الأمر الحكمة من عمله على ذلك
الحال ، ولكنها وضحت بعد ذلك عندما تبين
لنا أن موضعه قريب من خندق عميق محصور
بين جدارين من أسوار القلعة ويحترن مياه
الأمطار الغزيرة التي تسقط في معظم أوقات
السنة في تلك الجهات ، ومن ثم كان ماء الحمام
يأتي من تلك المياه المختزنة في الخندق بغير ما
حاجة إلى رفعه بواسطة الآلات التقليدية ،
وكانت تكفي الأنابيب الفخارية وأنابيب
الرصاص لإيصال الماء إليه . ومما يذكر أننا
رأينا ذلك الخندق أو الخزان وهو ممتلئ بالماء
ويزخر بالثعابين التي يمتاز بعضها بأحجام تبعث
على الفزع ، ولا شك أن تلك الثعابين قد
تكاثرت وتجمعت على مدى القرون التي مرت
منذ أن انتهت الحروب الصليبية حتى وقتنا
هذا .

هذا وقد نتج عن ذلك الاستقرار السياسي



شامي

قرب رقية الإنسان ، ويخرج الماء من صنبور في جدار صدر الحجرة ويسيل على سطح بلاطة مائلة على ذلك الجدار المقابل للواجهة المفتوحة على الطريق ، ثم من البلاطة إلى قناة في أرضية الحجرة وإلى قناة أخرى مستعرضة بموازاة حافة الفتحة ليشرب الناس منها بأكواب أو طاسات من النحاس مربوطة بالسلاسل في الشبكة البرونزية التي تمثل الفتحة على السطرنج (ش : ٢٦٠) ، وتسمى البلاطة المائلة بالشاذروان ومجموعها بالسلسيل .

ش : ١٣٧ - مصر ، وكالة قاييتاي ، حجرة معيشة

الجبانة المعروفة أيضاً بقرافة قاييتاي نسبة إلى ذلك البناء . هذا وتوجد أمثلة أخرى عديدة لذلك النوع في عدة جهات من الشام ومصر . ومن الوحدات المعمارية التي انتشرت أيضاً في كثير من تلك المباني الدينية حجرة وضعت في ركن آخر من المبني السديني وتسمى « بالسبيل » ، واكتسبت هذا الاسم من الوظيفة التي شيدت من أجلها ، وهي تزويد أبناء السبيل وهم المارة في الطرق بالماء لإرواء ظمئهم بواسطة عمل أرضية الحجرة عالية إلى

كانت تشيد من أجلها المساجد الجامعة ، وقام تصميمه على نظام الصحن وفي جانب القبلة منه أكبر الإيوانات ، أما الجسوات الثلاثة الأخرى فقد وضع في كل منها إيوان أصغر من إيوان القبلة ، وفي نفس الوقت وضعت في أركان المبني مدرسة في كل ركن ، وتتكون المدرسة منها من صحن صغير وإيوان جهة القبلة (ش : ١٢٨ - ١٣٠) .

وبعد هذا الجامع من أجل العمائر الإسلامية في العالم كله ، وذلك لما يمتاز به من خصائص معمارية تجعله مضرب الأمثال في العظمة والفضامة والضخامة مع الهيبة والوقار والاعتماد على جمال النسب المعمارية ، ثم الرصانة في استعمال الزخارف ، ووضوح الذوق المرهف في تكوينات الأشرطة الكوفية التي تلتف بمجدران الإيوانات والصحن ، وهي أشرطة تعد من أجل أمثلة الكتابة الكوفية في العالم الإسلامي ، إلى غير ذلك من الإبداعات .

وكان قد ظهر تقليد محجري هام منذ أيام الأنابكة في الشام والعراق ثم في العصر الأيوبي ، وانتشر انتشاراً واسعاً في العصر المملوكي ، وهو إضافة ضريح في ركن من أركان المبني الديني ، أي المدرسة أو المسجد أو الخانقاه ، وذلك ليُدفن فيه صاحب البناء وعائلته . وبذلك انتقل موضع القبة التقليدية ، التي كانت في النموذج النبوي تغطي المربع الذي يتقدم المحراب ، لتوضع فوق الضريح . ومن أشهر وأجمل أمثلة ذلك التقليد الجديد جامع ومدرسة قاييتاي بالقرافة الشمالية التي ترى الآن من شارع صلاح سالم (ش : ١٣٤) ، وهي

في منطقة الشام ومصر ووفرة الموارد المالية في أيدي المالك والأمرء والمقرئين منهم والتجار وأصحاب الأملاك من العقارات والأراضي الزراعية أن ازدهرت الحركة العمرانية على مدى أكثر من قرنين ونصف ، حتى أنه قد وصل إلينا من عمارتهم من مختلف الأنواع عدد يبلغ نحو ٢٣٠ اثرأ في العاصمة وحدها التي كانت تعرف بمصر وتعرف الآن بالقاهرة ، وكثير من تلك العمائر ما يزال باقياً في حالة جيدة ، وبعض بقيت منه أكثر أجزاءه ، وآخر بقيت معالم منه واضحة على الرغم من خرابه .

وهناك عدد كبير آخر من العمائر المملوكية في مناطق الشام موزعة في عدة مدن منها ، وفي الدويلات التي قسمها إليها الخلفاء بعد الحرب العالمية الأولى ، أي في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وليست مركزة في مدينة واحدة كالحال في العاصمة المصرية .

ونكتفي بأن نشير إلى بعض النواحي البارزة في تاريخ العمارة في عصر المالك بأنهم اعتمدوا كثيراً على المنشآت العسكرية والتحصينات التي سبق أن شيدها الأيوبيون ، وكانت شغلهم الشاغل في الفترة المضطربة من جراء الحروب الصليبية .

أما العمارة الدينية فقد ساد فيها نموذج الصحن والإيوانات ، وشيدت عليه المساجد والمدارس والخانقاوات ، ومن أهم أمثله جامع ومدرسة السلطان حسن^(٣) الذي شيد تحت سفح الهضبة التي قامت عليها قلعة صلاح الدين وقلعة محمد علي .

ويؤدي مبنى ذلك الجامع الوظيفة التي

كذلك انتشر عمل حجرة تعلو السبيل وتستعمل لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وكانت تسمى « بالملكيب » أو « الكُتَاب » ، وجمعها « كتاتيب » (ش : ٢٦٠) . وفي بعض الأحيان كان السبيل يبني كوحدة مستقلة في الدور الأرضي ويعلوه الكُتَاب .

ومثل ذلك كانت الأضرحة تبني كوحدة مستقلة لمن لم تكن لديه القدرة على بناء مبنى ديني . وفي من تلك الأضرحة عدد كبير في كل من الشام ومصر من العصر المملوكي^(٣٨) . وغالباً ما يكون الضريح على شكل حجرة مربعة تعلوها قبة . وتحاط أحياناً بفناء حوله جدران وحجرات لصاحب الضريح . وبعد الكثير منها تحفاً معمارية من حيث النسب والزخارف والعناصر .

ومن العماير الدينية التي انتشر بناؤها في العصر المملوكي النوع المعروف بالخانقاة ، ويتكون من الصحن التقليدي والإيوانات وغيرها من الوحدات التي يتكون منها الجامع والمدرسة ، مثل الخلوات أي الحجرات التي يسكنها الطلبة ، إلا أن الخانات كانت مخصصة لنوع آخر من الطلبة هم من أصحاب الأعمال من تجار وحرفيين وغيرهم ممن لهم رغبة في الاستزادة من العلوم الدينية والدينيوية ، ولكن لا يمكنهم ترك أعمالهم التي تدر عليهم معاشهم ومعاش عيالهم ، فيزاولون تلك الأعمال في قسم من يومهم ، ويخصصون القسم الآخر للدراسة والعلم . وهم بذلك يختلفون عن الطلبة المنقطعين للدراسة طوال اليوم ،

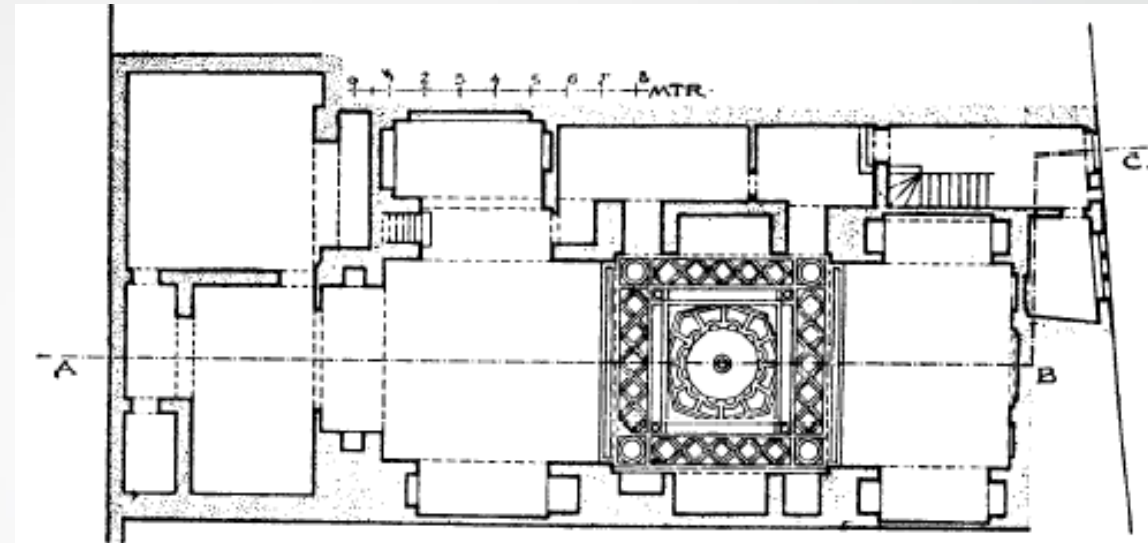
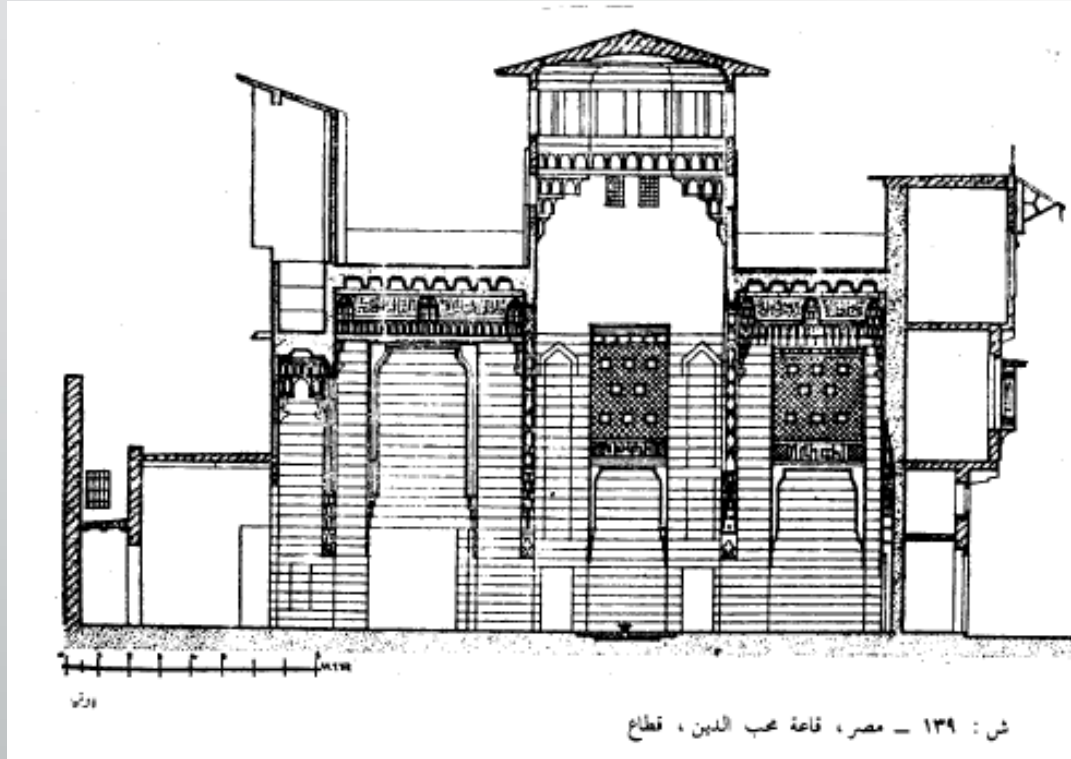
وتجربى عليهم وعلى أساتذتهم الأرزاق ، أو « الجراية » كما كانوا يسمونها ، والتي كانت تأتيهم من غلة الأوقاف التي كانت تجس لتلك الأغراض وعلى صيانة المباني .

ومنذ العصور المبكرة من الإسلام ، بل ومن قبله ، كانت تشيد أبنية تقوم بوظيفة إيواء المسافرين على طرق القوافل . وكان العرب يسمونها « فندقاً » ، ثم عرفت في فارس وتركيا « بالمسافرخانة » و« الكرفانسراي » ، بل عرفت أحياناً بتلك الأسماء الأعجمية في البلاد العربية ، كما كانت تعرف أيضاً بالخان .

وانتشر بناء تلك العماير داخل المدن الكبيرة والصغيرة ، وبخاصة تلك التي تتمتع بأهمية تجارية ، ولكنها كانت وظلت في البلاد العربية ومنذ العصور المبكرة تسمى « بالوكالات » و« الخانات » و« القيساريات » ،

وكانت كلها تقريباً متشابهة فيما كانت تؤديه من خدمات ، ولذلك كانت متشابهة في تصميماتها وأساليب بنائها . فقد كان تخطيطها يتكون من الفناء الأوسط التقليدي ولكن على مساحة أكبر ، وتحيط به وحدات مختلفة ، منها بالطابق الأرضي ما يستعمل كحوانيت أو دكاكين لعرض السلع والبيع والشراء ، أو كمستودعات للبضائع المجلوبة من داخل البلاد وخارجها ، مثل المأكولات والأقمشة وغيرها ، أو كاصطبلات للدواب وعلفها ، إلى غير ذلك من الأغراض .

وكانت بالطوابق العليا حجرات مرصوفة بجانب بعضها البعض ويوصل إليها ممرات تطل على الفناء ، وكان بعضها يستعمل أيضاً للبيع



مخطط

ش: ١٣٨ - مصر، قاعة محب الدين، مخطط

والمعادن، ومن التكتيف والتطعيم، ومن الخزف وصياغة الذهب والجواهر، إلى غير ذلك من الحرف.

والشراء، إذا ما ضاقت الحجرات في الطابق الأرضي، أو كمصانع للحرف الصغيرة والفنون الزخرفية التي كانت تصنع من الخشب

ش: ١٣٩ - مصر، قاعة محب الدين، قطاع

بعضها ترص في واجهة الطابق الأرضي منه على الشارع حوانيت للتجارة والصناعات . وكانت كلمة قيسارية تطلق أيضاً على عمارات مشابهة للخانات والوكالات والفسادق وكانت نفس الكلمة تطلق أيضاً على الأسواق المفتوحة على الطرق والشوارع العامة . وكانت بعض تلك الأسواق تغطي بالحيام والمظلات حتى ليضاء بعضها بالقناديل في أثناء النهار .

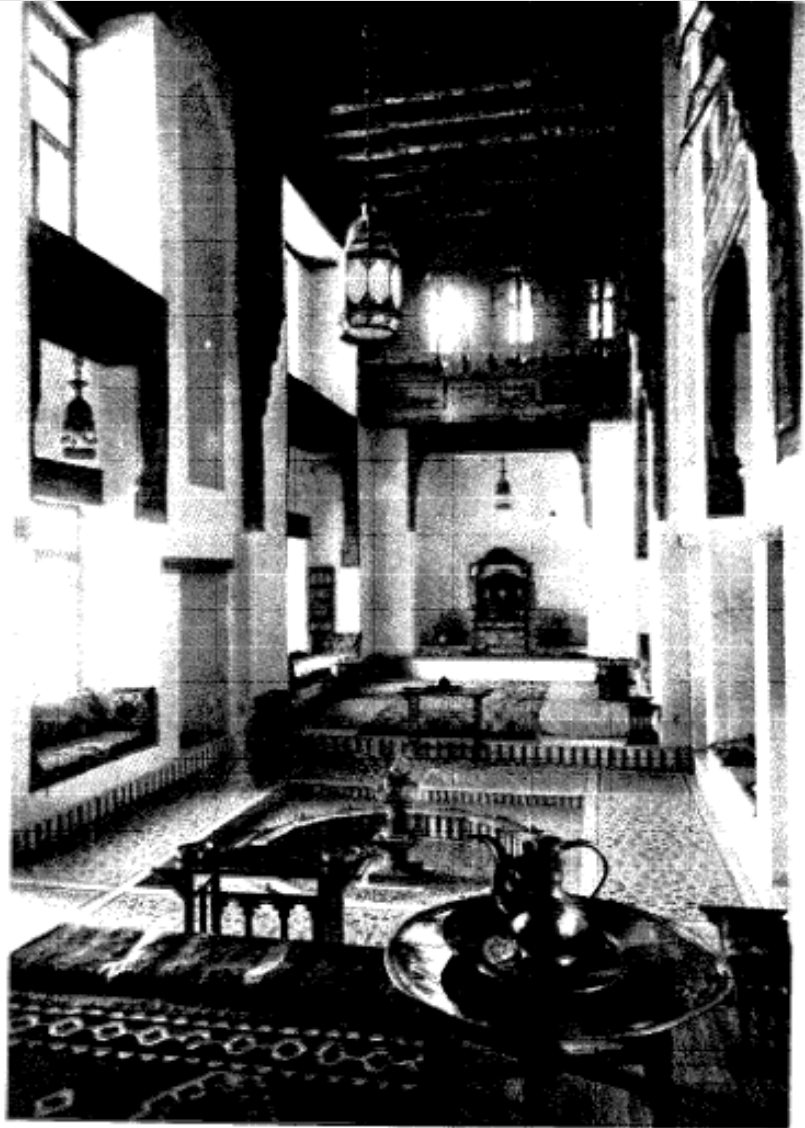
* * *

وكان بعض تلك الحجرات يستعمل أيضاً سكناً للتجار الوافدين أو المقيمين بصفة مؤقتة أو دائمة ، وكان بعضها مكوناً من طابقين على النظام المألوف في العصور الحديثة من حيث عمل حجرة للمعيشة وأخرى أو أكثر للنوم ، ومعها مطبخ صغير . أما دورات المياه فكانت في معظم الأحيان مشتركة . ومن أمثلتها وكالة ذي الفقار (ش : ١٣٥ - ١٣٦)^(١١) ، ومنها وكالة قايتباي بجوار باب النصر من أبواب حصن القاهرة الفاطمي (ش : ١٣٧) . كما كان



بوتني

ش : ١٤٠ - مصر ، منزل زينب خاتون ، مسقط



بيوتى

ش : ١٤١ - مصر ، بيت الكرنيلية ، القاعة الرئيسية

قليلاً عن الوكالات والفنادق والحانات ، بل إن بعض الرباع قد تطور مع الزمن إلى أن يستعمل وكالات وفنادق والعكس بالعكس . ومن حيث المنازل الخاصة بذوي الدخل المتوسط والمرتفع ، فإن جوهر تصميمها يتلخص في وجود الفناء الأوسط التقليدي

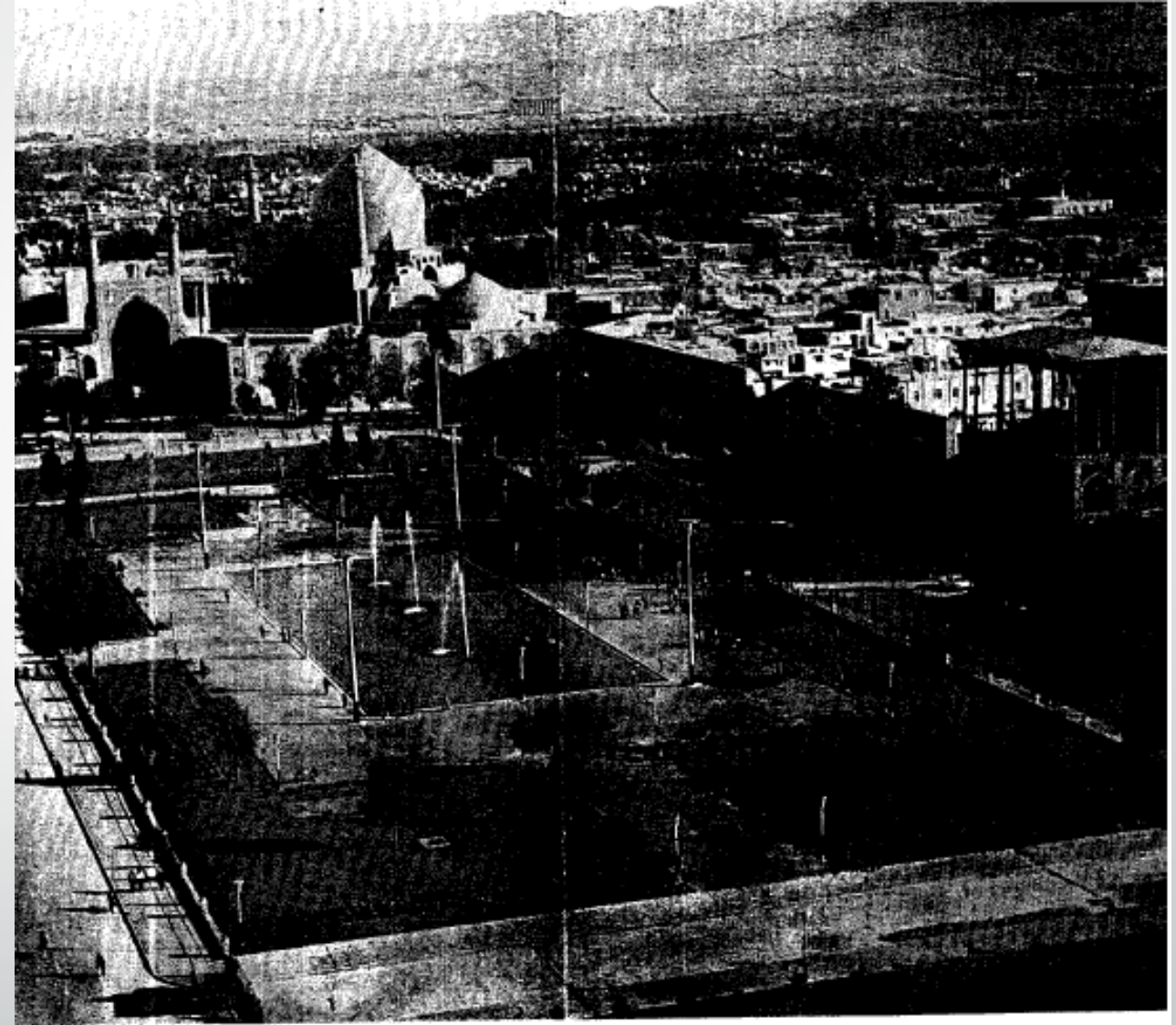
وتتمثل العمارة السكنية في ثلاثة نماذج من العماثر : أولهم مساكن عامة الشعب وهي المعروفة بالرباع جمع ربيع ، وثانيهم : مساكن الطبقة المتوسطة ، وثالثهم دور وتصور ذوي الثراء المتفاوت المستويات . أما الربيع فكان تصميمه ، لا يختلف إلا

وتستمد القاعة ضوءها وهواءها من الفناء أيضاً . وقد تحتوي الدار على قاعة أخرى خاصة بالنساء وأهل المنزل من الأقارب والذرية . ثم تحيط بتلك القاعات الوحدات الأخرى من الحجرات والمرافق ، وتعلوها في الطوابق العلوية وحدات أخرى ، وذلك تبعاً لاتساع الدار وثروة صاحبها .

أما الطابق الأرضي فيه المدخل الرئيسي والوحيد للدار ، وهو على شكل منكر كالكاشوبة ، وذلك لأغراض الأمن وحجب الأنظار الغريبة عن داخل الدار . وعلى جوانب

والذي تلف حوله وحدات الدار أو القصر . ومنها المقعد (ش : ٨٦) في الطابق فوق الأرضي ، وهو أشبه بليوان مفتوح على الفناء ويطل عليه من خلال عقد أو أكثر ، وتحت المقعد حجرة في مستوى أرضية الفناء .

ويوصل المقعد الذي يصعد إليه من الفناء إلى القاعة الرئيسية (ش : ١٤١) للاستقبال في المناسبات وفي وقت الشتاء عندما لا يصلح المقعد للجلوس بسبب برودة الجو ، وعادة ما تتوسط القاعة نافورة تصل في صناعتها وتصميمها الزخرفي إلى مستويات عالية ،



السياسة الإيرانية

ش : ١٤٢ - أصفهان ، ميدان الشاه عباس

المدخل حجرات خزن المؤن والاصطبلات
وعلف الدواب ، إلى غير ذلك من الأغراض .
وغالباً ما كان الفناء به بئر وأحياناً نافورة .
ولم يبق متكاملًا من تلك الدور إلا النذر
اليسير الذي دخلته تعديلات كثيرة وعلى عدة
مراحل في العصر العثماني بل وفي العصور
الحديثة ، غير أن التخطيط الأصلي يمكن تصويره
من الوحدات الباقية المتناثرة في أحياء العاصمة
القديمة من المقعد والقاعة وغيرهما ومنها مقعد
قصر ماماى السيفي المعروف ببيت القاضي ،
ومنها مقعد بيت شلبي (ش : ٨٦) (١١) ، ومنها
القاعة الباقية من قصر محب الدين (ش : ١٣٨
و ١٣٩) (١٢) ، ويمكن اعتبار منزل زينب خاتون
بحي القاهرة الفاطمية (ش : ١٤٠) (١٣) من
أهم الأمثلة التي احتفظت بكثير من المميزات
الملوكية . كما أن هناك مثل شيد في العصر

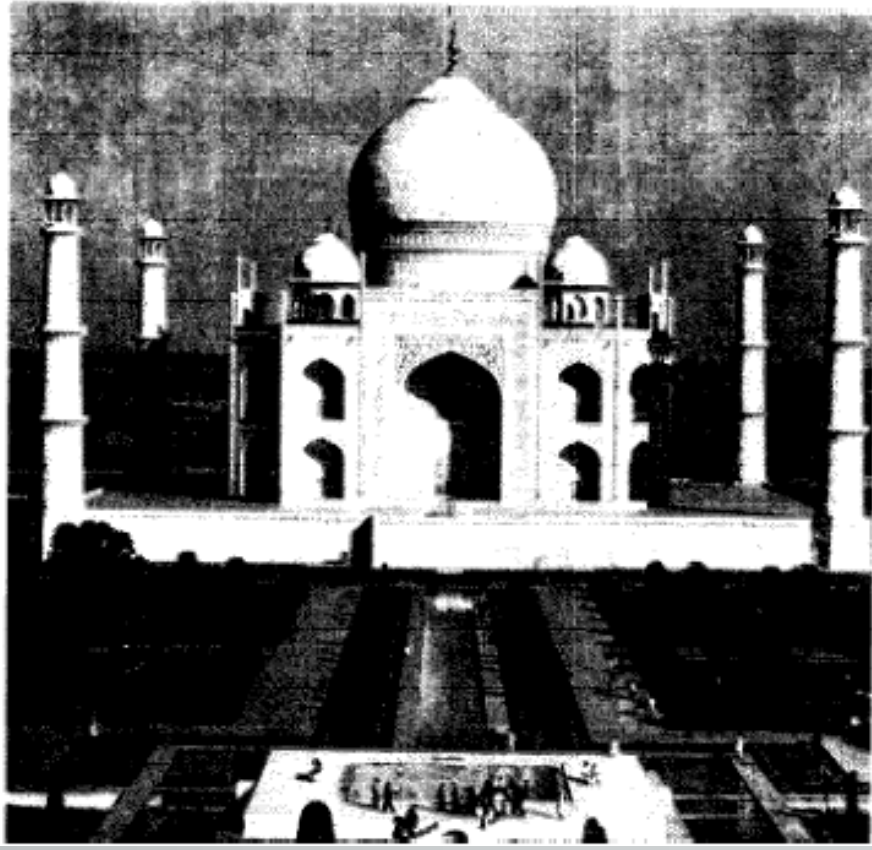
العثماني يعرف ببيت الكريتلية (ش : ١٤١)
ملاصقاً لجامع ابن طولون ، ولكنه مع ذلك
يعد مثلاً متكاملًا لخصائص المنزل أو القصر
الملوكي (١٤) .

* * *

وشيد في العصر المملوكي كثير من
الحمامات العامة ولكن لم يبق إلا القليل من
أجزاء منها مثل حمام بشتاق بسوق السلاح
بالقاهرة ، كما بقي حمام متكامل بسوحداته
الأصلية في دمشق ، حيث كان من النادر أن
يبقى بناء الحمام متكاملًا طويلاً بسبب تسرب
المياه وتأثيرها المخرب على الجدران . أما من
ناحية التصميم فكان يشبه التصميم الروماني
التقليدي ، ولكن بالإضافة إلى الحجرات
الباردة والدافئة والساخنة فقد كانت هناك
أخرى منها المخلع وقاعات الاستراحة والفساقي

بلنت

ش : ١٤٣ - اجرا ، تاج محل



وغيرها ، وكان يخصص بعض أيام للنساء كما كان بعض آخر مخصصاً لهم وحدهم^(١٤) .

* * *

وبعاصر قيام دولة المهاليك في مصر والشام ظهور أسرات ودول إسلامية أخرى في الأناضول والعراق وفارس .

وقد أشرنا إلى استقرار المغول في المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي ، أي في العراق وفارس وإلى أنهم اتخذوا من بغداد مرة أخرى حاضرة ، وحكموا منها كلا من العراق وفارس ، وقنعوا بها بعد أن ردهم المهاليك عن الشام ومصر .

واهم أولئك المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام بالبناء والتعمير في تلك المنطقة الشرقية ، وسار ركب العمارة العربية الإسلامية على الخطوط والتقاليد العريقة العريضة التي

المعمارية في أنحاء العالم الإسلامي ، غير أنها اتخذت أحياناً مقياساً كبيراً (ش : ١٠١) .

وكذلك أخذ يكثر بالتدريج استخدام الفسيفساء والبلاطات الخزفية ذات الأحجام والأشكال المختلفة ، والتي كانت تشتهر بصناعتها مراكز متخصصة في بعض المدن في فارس والعراق ، مثل الموصل والرقّة والري وسلطاناباد وقاشان وغيرها . وصارت واجهات الجدران الداخلية والخارجية وواجهات المآذن والقباب تكسى بها ، وأدخلت ضمن الأشرطة والإطارات من الكتابات النسخية والكوفية ، بل إن الأمر قد زاد إلى حد كبير بعد قيام الدولة التيمورية التي خلفت الدولة الإيلخانية والتي نقل مؤسسها تيمورلنك الحاضرة من بغداد إلى سمرقند .

كانت سائدة هناك من قبل تلك الغارات ، وذلك من حيث تخطيط المساجد والأضرحة ، ومن حيث أساليب العراق بالبناء بالأجر واستخدامه في تكوينات هندسية وزخرفية ، ومن حيث طرق التسقيف والتغطيات بالقباب المدببة والمخروطية والأقبية الكروية وذات الضلوع المتقاطعة ، إلى غير ذلك من العناصر والتفاصيل التي كانت مستعملة في تلك البلاد من قبل ، أي منذ أيام البويهيين والغزنويين ثم السلاجقة .

ثم زاد التآلق في البناء في عصر الإيلخانيين ، وبخاصة في الأشرطة الجدارية من الجص ذات الكتابات الكوفية والنسخية . كما كثر استعمال المقرنصات مثل بقية المدارس

واشتهر تيمور برعايته للعمارة والفنون ، غير أنه لم يتطرق تغيير جوهر في التخطيط والتصميمات للعمائر المختلفة ، ولكن ظهر بعض التطور في تكوينات المآذن التي زاد الاهتمام بوضعها في عدة أماكن من المبني الواحد ، وبخاصة على جانبي الإيوان الرئيسي بالعمائر الدينية من مدارس ومساجد ، كما وضح شكل بصلي للقباب . وسيأتي شرح ذلك في الفصل الرابع الخاص بالعناصر المعمارية الرئيسية .

وبقيت سمرقند مركزاً للنشاط المعماري حتى بعد أن اتخذ شاه رخ من مدينة هراة حاضرة للملك .

وتوجد أمثلة لعمائر ذات مستوى معماري رفيع في جهات متعددة من فارس مثل الجامع الأزرق في تبريز وغيرها^(١٥) .

واستمرت حلقات التطور متلاحقة من بعد العصر التيموري إلى العصر الصفوي أي طوال القرنين العاشر والحادي عشر من الهجرة (١٦ و١٧م).

ومن أهم عمائر العصر الصفوي الميدان العظيم الذي أمر بعمله الشاه عباس (ش: ١٤٢) والذي يتقدم الجامع الكبير المعروف بمسجد الشاه في مدينة أصفهان التي صارت حاضرة للصفويين، كما يوجد في جانب من ذلك الميدان مسجد الشيخ لطف الله^(١١)، إلى غير ذلك من المساجد والمدارس والقصور^(١٢).

ويعود الكثير من الأسواق المغطاة بالأقنية والقباب وذات الضلوع المتقاطعة^(١٣) إلى عصر الصفويين أيضاً، وكذلك بعض القناطر التي تعبر الأنهار^(١٤).

ومن المعروف أن اتصال المسلمين ببلاد الهند يعود إلى أيام الفتح العربية الأولى في أيام الدولة الأموية. وقد وصلنا من الآثار المعمارية والفنية من تلك البلاد بابان خشبيان محفوظان حالياً بقلعة «أجرا»^(١٥)، وكانا في ضريح محمود بن سبكتكين، المعروف بمحمود الغزنوي، الذي تولى الحكم من سنة ٣٨٩ وحتى سنة ٤٢١ من الهجرة (٩٩٧-١٠٣٠م)، فهو إذن يعاصر العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله ثم المستنصر بالله من الخلفاء الفاطميين الأول في مصر. كما بقيت من أعمال محمود الغزنوي أيضاً منارة في غزنة (ش: ١٨٢) وتؤرخ في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠م). وبقيت مشذنة أخرى شيدها

مسعود الثالث في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤م).

أما أقدم الآثار القائمة فتعود إلى أيام المملوك قطب الدين الذي تولى الحكم فترة قصيرة وصاحب «قطب منار» وهي المشذنة الشهيرة الباقية من جامع قوة الإسلام في دلهي (ش: ١٨٥)، وهي من أجل المآذن في العالم الإسلامي، ويبلغ ارتفاعها نحو ٧٥ متراً، ويؤرخ الجزء الأكبر من بدنها في أواخر القرن ٦ هـ (١٢م)، أما الجزء العلوي فقد أعيد بناؤه في القرن ١٠ هـ (١٦م). وسيأتي ذكرها فيما بعد.

ثم عانت تلك المناطق، كما عانى غيرها في

شرق العالم الإسلامي، من غارات المغول الأولى والثانية، فعوق ذلك من ازدهار الحضارة فيها حتى برز إلى المسرح أحد ذرية تيمور هو الأمير بابر مؤسس دولة مغول الهند والتي بنى مجدها الحقيقي الإمبراطور أكبر (٩٦٣-١٠١٤ هـ / ١٥٥٤ - ١٦٠٥م)، ومن بعده



بانت

ش: ١٤٤ - أجرا، جامع اللؤلؤة

جهانجير ثم شاه جهان في الربع الثاني من القرن ١١ هـ (١٧ م) ، وهم الأباطرة الذين كان لهم أكبر الأثر على ازدهار الفنون والعمارة في تلك المناطق من شمال الهند والأراضي المعروفة الآن بأفغانستان والباكستان .

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الأباطرة وغيرهم ممن تولوا الحكم من تلك الأسرة قد استعانوا بالمعماريين الفرس وغيرهم من الفنانين الذين كانوا أساتذة مشهورين في فارس ، وأجزل المغول لهم العطاء فأنجوا في ميدان العمارة أنواعاً من العمارات في جهات متعددة من الإمبراطورية المغولية الهندية ، وكان من الطبيعي أن يستخدم أولئك الفنانون والمعماريون التقاليد الفارسية التي تعودوا على مزاولتها في بلادهم ، ولكن إلى جانب الطابع الفارسي الإسلامي فقد أثرت البيشة والتقاليد الهندية المحلية القديمة على إنتاجهم ، مما دعى علماء

العمارة والفنون يطلقون على ذلك الإنتاج اسم المدرسة الهندية الفارسية (Indo-Persian) . ومن العمارات ذات الأهمية الخاصة المسجد الجامع بمجونيور ، وشيد فيما بين سنتي ٨٤٢ و٨٨٣ هـ (١٤٣٨ و١٤٧٨ م)^(١١) ، إذ تتضح فيه تأثيرات قوية من المدرسة التيمورية ، وذلك من حيث المدخل المرتفع ، ولكن مع وضوح الطابع الهندي الذي يتمثل في الجوانب المائلة . وما استلقت النظر تلك الفصوص المقعرة الدقيقة التي تحيط بجافات العقود المدببة والتي تذكرنا بأشياء لها في العمارة المغربية الأندلسية . ومن عجب أن نراها منتشرة في العمارة الإسلامية في الهند ومنها ما يوجد في جامع اللؤلؤة والذي شيد ضمن قصور شاه جهان في

أجرا في سنة ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥ م) . (ش : ١٤٤) .

ومن أهم التقاليد المنتشرة تغطية الجدران بالفسيفساء والبلاطات الخزفية ذات الألوان المختلفة ، وبقيت منها ندرة قليلة وزال أكثرها . ومن الظواهر المعمارية التي أعظم بها الفنانون في العصر الهندي المغولي كثرة استخدام ما يشبه جواسق متفاوتة الأحجام وتغطيتها قبيبات وتنتثر في مواضع عدة من المبنى سواء كان قصراً أو ضريحاً أو مسجداً أو غير ذلك^(١٢) .

ومن أشهر ما شيد في الفترة الزاهرة من العصر الهندي المغولي القبر المعروف بتاج محل (ش : ١٤٣) والذي شيده شاه جهان لزوجته ومحبوته في سنة ١٠٥٤ هـ (١٦٤٨ م)^(١٣) ، وقام بتصميمه وبنائه معماريان فارسيان هما أستاذ محمد وأستاذ حميد ، وعلى الرغم من التأثيرات الفارسية الواضحة إلا أن الشخصية الهندية لا

تقل وضوحاً .

وليس هناك من شك في أن هذا المبنى يتميز بكثير من النواحي المعمارية الرائعة وبخاصة أن المبنى قد كسى بالرخام كله مما جعل الشاعر الإنجليزي الشهير «روديارد كيبلينج» (Rudyard Kipling) يقول عن المبنى إنه : «قصيدة شعرية من الرخام» (A poem in marble) .

وأصاب الهند ما أصاب البلاد الإسلامية الأخرى من زحف الاستعمار الأوروبي وما صحب ذلك من طغيان التقاليد المعمارية الغربية التي نالت من أصالة العمارة الإسلامية وجعلتها تدور في دوامات وتيارات وتبدو وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة .

* * *

العمارة العربية الإسلامية في عصورها الأخيرة القرن ١٠-١٣ هـ ١٦-١٩ م

ومن ثم انتقلت إليها حاضرة الدولة العثمانية ، واستقرت لهم الأمور في أوروبا ثم في البلاد العربية بعد هزيمة السلطان الغوري آخر المماليك ، ثم قتله وإتمام فتح مصر في نهاية سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) . ومن ثم أصبحت إمبراطورية العثمانيين تشمل القطاع الشرقي من جنوب أوروبا ، أي بلاد البلقان حتى الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي ، وذلك في الوقت الذي امتزجت فيه رواسب الطراز البيزنطي القديم مع المراحل المتطورة من طراز النهضة والمتميزة بالتغالي والإسراف الكبيرين في العناصر المعمارية والزخرفية والتي يبدو أن تلك الرواسب البيزنطية التي كانت محترقة داخل أسوار القسطنطينية ثم انطلقت منها بعد فتح العثمانيين كانت مسئولة عن هبوط مستوى المراحل الأخيرة من طراز النهضة والتي عرفت بطراز الباروك . وشملت أيضاً الإمبراطورية العثمانية آسيا الصغرى والعراق والشام ومصر وسرققة (ليبيا) وإفريقية (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) . واستورد العثمانيون المعياريين والفسانيين وأصحاب الحرف والصناعات من كل من البلاد الأوروبية والعربية وخلصوا التقاليد

ثم نصل أخيراً إلى أهم حادث وقع في تاريخ العالم الإسلامي ، وكان له أخطر الآثار على تطور العمارة الإسلامية ونقاء أصولها ، وذلك منذ وقوعه حتى وقتنا هذا .

وتتمثل الحلقات الأولى من ذلك الحادث في ظهور بني عثمان في آسيا الصغرى ثم تبيت أقدامهم فيها وتزايد قوتهم عندما أخذت تضعف سيطرة سلاجقة الروم منذ أواخر القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وإلى أن نجح العثمانيون في انتزاع مدينة بروسة في شمال غرب الأناضول من البيزنطيين واتخذوها حاضرة لهم . ثم انطلقوا بعد ذلك إلى جنوب أوروبا في القرن ٨ هـ (١٤ م) متجاوزين مدينة القسطنطينية أو بيزنطة عندما استعصت عليهم حتى وصلوا إلى بلاد الصرب ، ووسطوا نفوذهم على تلك المنطقة منذ أوائل القرن ٩ هـ (١٥ م) ، ولم يتأثروا كثيراً بهزيمتهم أمام تيمورلنك ووقوع بايزيد السلطان العثماني في أسر تيمور ونقله إلى فارس .

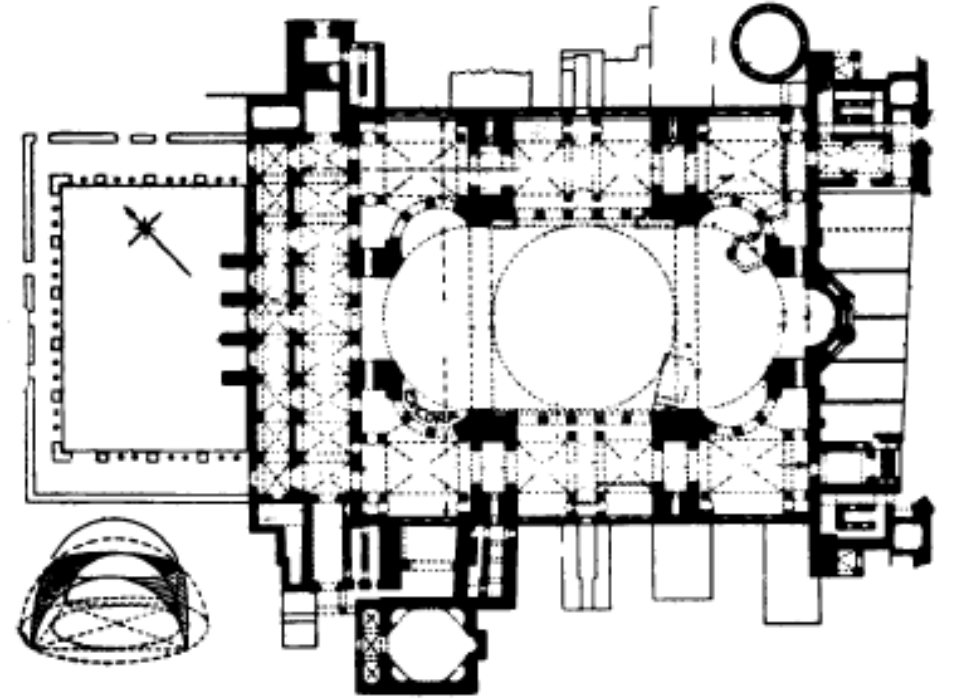
واستمرت محاولات العثمانيين للاستيلاء على القسطنطينية حتى تم لهم ذلك في منتصف ذلك القرن على يدي السلطان محمد القاتح ،

الموروثة في أقطار إمبراطوريتهم المختلفة ونشروا ذلك المزيج في أبحاثها، وكان من الطبيعي أن تشتد ملامح المزيج البيزنطي والباروك في مناطق الدولة في أوروبا، وأن تقوى ملامح العمارة الإسلامية بعض الشيء في المناطق العربية الإسلامية، وهو الأمر الذي جعل شخصية



فنشر

ش: ١٤٦ - استنبول، أيا صوفيا، واجهة



فنشر

ش: ١٤٥ - استنبول، أيا صوفيا، مسقط

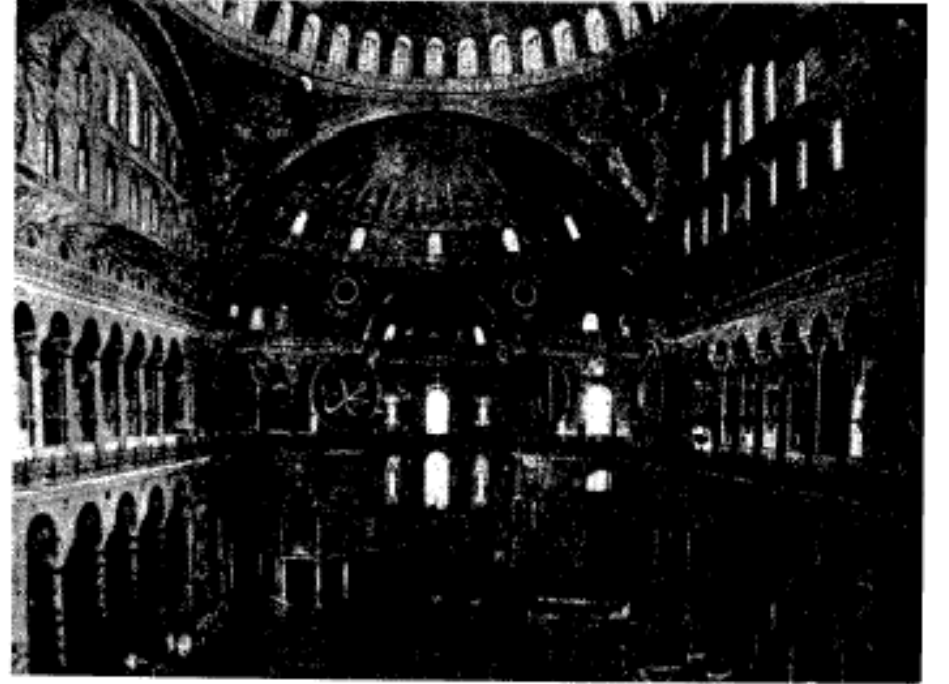
جعلت سلاطينهم وكبار رجال دولتهم يحصلون على ما ابتغوه من العظمة والفخامة والضحامة التي أوحى بها إليهم مميزات كنيسة أياصوفيا فحاولوا أن يقلدوها بل أن يزيوها ويرتفعوا فوقها مستواها (ش : ١٤٥ - ١٤٧) .



انشال

ش : ١٤٨ - استنبول ، جامع السلطنة ، واجهة

المدرسة المعمارية العثمانية تتصف بأنها خليط من عدد من الخصائص والتقاليد والعناصر من مدارس وطرز مختلفة ومن عدة عصور . وتجمعت تلك الظروف والعوامل لتوفر للعثمانيين إمكانات عظيمة ، مادية وبشرية



انشال

ش : ١٤٧ - استنبول ، أيا صوفيا ، من الداخل

شكرا لحسن المتابعة والاصغاء

